توظيف الأسطورة في تشكيل الخطاب الإشهاري في الشعر العراقي المعاصر

Employing Myth in Shaping Advertising Discourse in Contemporary Iraqi Poetry

محمد جميل مصطفى
د. جاسم محمد حسين
أستاذ مساعد
جامعة ديالى – كلية التربية للعلوم الانسانية

Mohamed Jamil Mustafa
Dr. Jassim Mohammed Hussain
Assistant professor
University of Diyala- College of Education for Humanities

Jmylm744@gmail.com
jassim80_sat@yahoo.com

تاريخ الاستلام ٢٠٢٢/٩/٢٥ **تاريخ القبول** ٢٠٢٢/١٠/٩

الكلمات المفتاحية: توظيف، الاسطورة، الخطاب، الشعر العراقي المعاصر

Keywords: Employment, myth, discourse, contemporary Iraqi poetry

الملخص

يهدف البحث إلى دراسة الشعر العراقي المعاصر (من الرواد إلى ٢٠٠٣) للوقوف عند مدى إفادة الشعراء العراقيين المعاصرين من الأسطورة في تشكيل خطاباتهم الإشهارية، ومدى استيعابها لرغباتهم، وتلبيتها لحاجاتهم في الترويج لأفكارهم ورؤاهم وبرامجهم (السياسية والإجتماعية والثقافية والإقتصادية والدينية) على مختلف توجّهاتهم الآيديولوجية، لذا سعت هذه الدراسة إلى الكشف عن ذلك مستعينة بالمنهج الأسطوري استقراءً وتحليلاً، وقد اقتضت الدراسة تقسيم البحث إلى مبحثين تسبقهما مقدّمة وتوطئة وتعقبهما خاتمة وقفت عند أهم النتائج المستخلصة من الدراسة.

Abstract

The current research focuses on the study of contemporary Iraqi poetry (from the pioneers to 2003) to determine the extent to which contemporary Iraqi poets benefit from myth in shaping their advertising discourse, and the extent to which it accommodates their desires, and meets their needs in promoting their ideas, visions and programs (political, social, cultural, economic and religious) on their various ideological orientations. Therefore, this study aims to reveal that using the mythical method of induction and analysis, and the study required dividing the research into two sections preceded by an introduction, presentation, and then a conclusion clarifying the most important results extracted from the study.

المقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيّنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

ظهر الإشهار في السّنوات الأخيرة بصورة ملفتة للإنتباه، واحتلّ مساحةً واسعةً من الإهتمام إعلامياً ونقديًّا، حتى أصبح ظاهرة إبداعية وجمالية أفرزتها وأسهمت في انتشارها عوامل متعدّدة (سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية ودينية) فحظي بأرضية ملائمة احتضنته وأتاحت له الوسائل والسّبُل التّواصلية مع المتلقين لاسيما وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمكتوبة، فكانت الوعاء الذي استوعب رغبات المُشهِرِينَ، ولبّى حاجاتهم في الترويج لأفكارهم ورؤاهم وبرامجهم (السياسية والإجتماعية والثقافية والإقتصادية والدينية) على مختلف توجّهاتهم، وفي ظلّ هذه البيئة نما الإشهار وترعرع بسرعة فائقة حتّى صار سمة العصر الحديث.

ولا شكّ أنّ الخطاب الشعري المعاصر شكّل رافداً مهمًّا لدراسة الإشهار لما يحمله من مضامين وأنساق ثقافية واجتماعية وسياسية مهيمنة؛ لذلك جاءت هذه الدراسة لتكشف الأبعاد الآيديولوجية المتضمّنة في نصوص الشاعر العراقي المعاصر من خلال توظيفه للأسطورة في خطابه الشعري العام.

تحرّت الدراسة مواطن الآليات والإستراتيجيات الإشهارية في النصوص الشعرية العراقية المعاصرة ضمن المدّة الزمنية (من الرواد إلى عام ٢٠٠٣).

اعتمدت الدراسة الآليات التحليلية للنقد الأسطوري لرصد الخطابات الإشهارية التي يمرّرها الشاعر العراقي المعاصر في نصوصه الشعرية من خلال توظيفه للأسطورة في خطابه الشعري.

جاءت هيكلية خطّة الدراسة متضمّنة مقدّمة وتوطئة للدراسة ومبحثين وخاتمة ثمّ قائمة بأهم المصادر والمراجع. تناولت التوطئة مدخلاً نظرياً يحيط بالإشهار والأسطورة ومدى ارتباطهما بالشعر، أمّا المبحث الأول فقد وقفت الدراسة فيه عند النصوص الشعرية العراقية المعاصرة التي وظّفت الأساطير الشرقية وأشهرت من خلالها مواقف الشعراء من العالم، ورؤيتهم المعاصرة. أمّا المبحث الثاني فقد تناولت الدراسة فيه توظيف الشعراء العراقيين المعاصرين للأسطورة الغربية في نصوصهم ومدى استثمارهم الأسطورة في ترويج أفكارهم الآيديولوجية المؤثّرة في أذهان وعواطف المتلقي. أمّا الخاتمة فقد وقفت عند أهم النتائج المستخلصة من الدراسة.

توطئة:

تدور المعجمات اللغوية حول موضوع واحد لمفهوم الأسطورة، فهي عند ابن منظور مأخوذة من سطر يسطر تسطيراً، بمعنى: ألّف يؤلّف تأليفاً، والسطر يعني الصّف من الكتاب والنخل والشجر ويجمع على سطور، وجاء في التنزيل [وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ][١] بمعنى: ما سطّره الأوّلون، والأساطير مفردها أسطورة وتعني الأباطيل، بوصفها أحاديث لا نظام لها، يقال سطر فلان يسطر إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل[٢]. فالأساطير لغوياً تأتي بمعنى زخرفة الأقاويل للمتلقي لجذب انتباهه وتحريك مشاعره وأحاسيسه وعواطفه.

أمّا في الإصطلاح فتعني ((قصة خيالية يسودها الخيال، تبرز فيها قوى الطبيعة في صور كائنات حيّة ذات شخصية ممتازة ينبني عليها الأدب الشعبي، وتستخدم في عرض مذهب أو فكرة عرضاً شعرياً قصصياً، فهي سرد لا تتفق عناصره مع الحقيقة الملموسة))[٣] وللأسطورة وظائف متعدّدة منها الوظيفة التفسيرية فحين يصعب على الإنسان فهم النظم الكونية تأتي الأسطورة لتفسّر للبشر مغاليق الكون وأسراره من خلال تجسيد القوى غير المفهومة في شكل آلهة أو كائنات خارقة للعادة، فضلاً عن الوظيفة الأخلاقية مجسّدةً في أساطير العصيان للأوامر الإلهية التي تتسبّب عنها العقوبات، ومنها الوظيفية التعويضية التي تحرّر شعور الإنسان بالنقص والضعف وتتجلّى في الشخصيات البطولية العظمى سواء كانت تاريخية أم خرافية، ومنها الوظيفة النفسية المرتبطة بأحلام البشر وتصوّراتهم الرمزية للأشياء أو الحيوانات الخرافية التي تحيل على تجارب الإنسان النفسية في الحياة وآماله ومخاوفه[٤] والأسطورة بطبيعتها القائمة على فكرة الترويج والتسويق لا تحيد عن مثل ((تلك الوظيفية حين تُستَدعى للإقناع السّرّي؛ باعتبارها جزءاً من المشترك الجمعي ذا تعبئة روحية ونفسية وثقافية من شأنها التبليغ والتأثير))[٥] والشعر بطبيعته المتجاوزة للسائد والنمطي يتعالق مع روح الأسطورة واشتغالاتها بوصفه ((السليل المباشر للأسطورة وابنها الشرعي، وقد شقّ لنفسه طريقاً مستقلًّا بعد أن أتقن عن الأسطورة ذلك التناوب بين التصريح والتلميح، بين الدلالة والإشارة،

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥.

(٢) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (مادة: سطر): ج٤، ٣٦٣.

(٣) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس: ٣٢.

(٤) ينظر: المصدر السابق: الصفحة نفسها.

(٥) استراتيجيات الإقناع من خلال الأسطورة في الخطاب الإشهاري، أسماء حمايدة، مجلّة كلية الآداب واللغات، ع٢٢، جامعة محمد خيضر، بسكرة – الجزائر، ٢٠١٨م: ١٨٧.

بين المقولة والشّطحة، وبعد أن أتقن عنها أيضاً كيف يمكن للغة السّحريّة أن تقول دون أن تقول، وأن تشبعك بالمعنى دون أن تقدّم معنًى محدّداً ودقيقاً))[١].

وقد وظّف الشعراء العراقيون المعاصرون الأسطورة بغزارة في نصوصهم لعلمهم بتلك الخدمة الجليلة التي تسديها الأسطورة لاستمالة المتلقي نحو اقتناء بضاعة ما (فكرية أو ثقافية أو اجتماعية) تلك التي لا يحيد عنها إشهار على الإطلاق؛ وذلك لأنّها ((مختلطة بسيرورة الخداع وتخفي رسائل أيديولوجية خلف البداهة الهادئة للعقل السليم))[٢] وما دامت الأسطورة كذلك قادرة على تصنيع عالم الرغبات بوصفها تمثّل ((ميلاً ونزوعاً وتعمل كخميرة لكل أشكال التعبير الفني وتضع بين أيدينا منظاراً ملوّناً يعيد البهجة والمعنى للحياة فإنّ باستطاعتنا الركون إليها واعتبارها مصدراً إيجابياً في إنتاج الثقافة واستهلاكها))[٣]. ويأتي توظيف الأسطورة في الخطاب الشعري لإشهار الأفكار والتصوّرات ورؤية العالم التي يسرّبها الشاعر في نصوصه الشعرية المعاصرة بغية الترويج وتسويق الخطابات السياسية والإجتماعية والثقافية المرتبطة بأنماط حياة الشعوب والثقافات والبنى الإجتماعية، وهذا ما سنبحث فيه لدى الشعراء العراقيين المعاصرين الذين عادوا إلى المنابع الفكرية الأولى واستثمروا الأساطير الشرقية والغربية لتفريغ آيديولوجيتهم السياسية والإجتماعية والثقافية والزج بها من خلال نصوصهم إلى أذهان المتلقي الذي ستتحقق لديه الإستجابة بحسب مخزونه الفكري والثقافي، وقد قسّمنا البحث إلى قسمين: الأول تقصّى طبيعة توظيف الشعراء للأسطورة الشرقية. والثاني تقصّى طبيعة توظيف الشاعر للأسطورة الغربية.

(١) الأسطورة والمعنى – دراسة في الميثولوجيا والديانات المشرقية، د. فراس السواح: ٢٢.

(٢) استراتيجيات التواصل الإشهاري، سعيد بنكراد: ٢٩٤.

(٣) الأسطورة والمعنى – دراسة في الميثولوجيا والديانات المشرقية: ٣١.

المبحث الأول

توظيف الأسطورة الشرقية في تشكيل الخطاب الإشهاري

استثمر الشاعر العراقي المعاصر الأسطورة الشرقية للترويج لأفكاره السياسية والثقافية والإجتماعية فضلاً عن إكساب المتلقي معرفة وثقافة بماضي الحضارات وحاضرها، ومن خلالها يعالج قضايا المجتمع. وقد فهم الشاعر بدر شاكر السياب ذلك الأمر فجاء نصّه الشعري (من رؤيا فوكاي) في مجموعته الشعرية (أنشودة المطر) عام ١٩٦٠ موظّفاً الأسطورة الشرقية الصينية (كونغاي) مشهراً من خلالها عن آيديولوجيته السياسية والإجتماعية إذ يقول[١] :

ما زال ناقوس أبيكِ يُقلقُ المساء
بأفجع الرّثاء:
"هياي .. كونغاي، كونغاي"
فيفزع الصّغار في الدّروب
وتخفق القلوب
وتغلق الدّور ببكّين وشنغهاي
من رجع: كونَغاي كونَغاي
فلتُحرقي وطفلكِ الوليد
ليجمع الحديد بالحديد
والفحم والنّحاس بالنّضار
والعالم القديم بالجديد
آلهة الحديد والنّحاس والدّمار
أبوكِ رائد المحيط نام في القرار
من مقلتيه لؤلؤ يبيعه التّجّار ...
وحظّكِ الدّموع والمحار
وعاصفٌ عاتٍ من الرّصاص والحديد
وذلك المجلجل المرنّ من بعيد
لمن، لمن يدقّ: "كونَغاي كونَغاي" ؟
أهمَّ بالرحيل في غرناطة الغجر ؟
فاخضرّت الرّياح والغدير والقمر

---

(١) الأعمال الشعرية الكاملة، بدر شاكر السياب: ١/ ٢٥١- ٢٥٢.

أم سمّر المسيح بالصّليب فانتصر

وأنبتت دماؤه الورود في الصّخر ؟

أم أنّها دماء كونغاي ؟

يوظّف السياب أسطورة (كونغاي)[١] لخدمة خطابه الإشهاري الذي يحمل أبعاداً إنسانية تتخطّى الذات والوطن لتشمل أزمات الإنسانية جمعاء، فهو خطاب يتبنّى إيصال حالة الظلم والقهر والرعب الذي يعانيه اليابانيون من قبل تجّار الحروب وصانعي أسلحة الدمار الشامل، خطاب يحمل إشهاراً للصراع السياسي العالمي والقهر الطبقي الإجتماعي، ومن خلالهما يروّج للثورة على نظم الظلم الإجتماعي والتغيير وتحقيق حرية الإرادة لدى الشعوب المناهضة للرأسمالية العالمية المجحفة، خطاب يتضمّن رؤية تؤمن بإحلال السلام والحب والتعايش الإنساني بدلاً من الرؤية الإمبريالية التي تؤمن بالحروب والصراعات العالمية بين شعوب الأرض كافة، فمن خلال تضمين السياب لأسطورة كونغاي، العذراء التي انصهر دمها بالمعادن منتجاً ذلك الناقوس الملكي الذي ظلّ يردد اسمها كلما دق، والذي يوحي بفكرة الإنبعاث بعد الموت، ولكنّ السياب يحمّله بعداً آخر وهو إشهار فكرة الموت والجفاف والفناء الذي أصاب البشرية بعدما سيطرت قوى الشر العالمي وتجّار الحروب وصنّاع الأسلحة الذرية التي أنتجت عالماً مليئاً بالرصاص والحديد بدلاً من الحب والسلام، فهل استطاع الموت أن يحقق انبعاثاً حقيقياً يخدم الإنسانية أم إنّه أنتج خراباً عمّ العالم من أقصاه إلى أقصاه بسبب تلك القرابين التي قدمت على مذابح الجشع المادي والأفكار الرأسمالية المادية المعاصرة التي أسّست للطبقية والظلم الإجتماعي ؟

أمّا الشاعر سامي مهدي فقد وظّف في نصّه الشعري (رواية عن الطوفان) في مجموعته الشعرية (الزوال) المطبوعة عام ١٩٨١ أسطورة الطوفان السومرية للإشهار عن آيديولوجيته إذ يقول[٢] :

... ولمّا كفّت الأمطار

---

(١) التي تحكي قصة ملك أراد ناقوساً ضخماً يصنع من الذّهب والحديد والفضّة والنّحاس وكلّف أحد الحكّام بصنعه ولكنّ المعادن المختلفة أبت أن تتّحد واستشارت كونغاي – وهي ابنة ذلك الحاكم – العرّافين بالأمر فأنبأوها بأنّ المعادن لن تتّحد ما لم تمتزج بدماء فتاة عذراء ... وهكذا ألقت كونغاي بنفسها في القدر الضّخمة التي تصهر فيها المعادن ... فكان النّاقوس ... وظلّ صدى كونغاي يتردّد منه كلّما دق: "هياي ... كونغاي كونغاي". ينظر: الأعمال الشعرية الكاملة، بدر شاكر السياب: ١/ ٢٥١.

(٢) الأعمال الشعرية، سامي مهدي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٦م: ٢٨٤– ٢٨٥.

وانجلت العواصف
كان من في الفلك قد تعبوا،
فناموا،
واستطابوا النّوم ..
ناموا ربّما شهرين
أو سنتين ..
ناموا مذعنين
وإذ أفاقوا لم يروا في الأفق غير الماء ...
.....
قالوا:
كم لبثتم ؟
ربّما يومين ..
قالوا:
ربّما يومين ..
أمّا الفلك فاهترأت جوانبه
وعاد بلا بشائر كلُّ طير أطلقوه
فأكثروا الصّلوات
وانتظروا ..
ولمّا أيقنوا ألّا مفرَّ،
استغفروا أربابهم،
وبكوا
وناموا مرّة أخرى ...
.....

تذكر المرويات السومرية أنّ قراراً بإفناء البشرية قد تمّ الإتّفاق عليه من قبل أغلب الآلهة، فراحت إنانا تنوح مصير البشرية، وذهب إنكي سرّاً إلى رجل صالح يُدعى زيوسدرا مُبَلّغاً إيّاه قرار الآلهة بدمار الأرض ويوجّهه لبناء السفينة كي ينقذ نفراً من البشر والحيوانات؛ للحفاظ على بذرة الحياة فوق الأرض؛ لينتهي الطوفان ويبدأ زيوسدرا بتقديم الذبائح قرباناً للآلهة على النجاة[١] هذه هي فكرة أسطورة الطوفان باختصار شديد استثمرها سامي مهدي

(١) ينظر: مغامرة العقل الأولى، فراس السواح، دار الكلمة، بيروت – لبنان: ١٥٨.

وحاك من نسيجها خطابه الإشهاري المعبّأ بالآيديولوجيا التي روّج لها في نصّه الشعري، فهو يوجّه متلقيه إلى عدم الخضوع والإستسلام للأقدار التي تحرّكها القوى الماورائية، شاحذاً همم المتلقي لتحمّل المشاق وتغيير الواقع المعيش بوسائل مادية من صنع البشر لحمايته من أخطار الطوفان الذي يتهدّده على الدوام، فالإكتفاء بالأدعية وتقديم القرابين وانتظار حلول السماء لا جدوى منها، ولا طائل تحتها من وجهة نظره التي يروّج لها في نصّه الشعري مستثمراً أسطورة الطوفان بوصفها آلية ينقد بها ذهنية المجتمع الشرقي الذي يستدعي الحلول الميتافيزيقية لحلحلة مشاكله الواقعية مترقّباً عدالة السماء بدلاً من صناعة عدالة بإرادة بشرية لتتكفّل بإنقاذه من المد الطوفاني الذي يتهدد حاضره ومستقبله، يؤكد ذلك نصّه الشعري (كسرة من لوح عثر عليها مصادفة) في المجموعة الشعرية نفسها والذي يقول فيه[1] :

هل طهّر الطوفان رجس الأرض
واستبقى من العُبّاد أتقاهم ؟
وماذا لو تبَقّى رغم كلّ ضراوة الطوفان
فُجّار ونصّابون ؟
ماذا لو تجبّر بعض من في الفُلك
وائتمروا بمن معهم ؟
أكان سيمحق الجوديّ
أم تطوى على الفلك المياه ؟
وهل نجت من غضبة الطوفان إلّا قلّة
واستأثرت برواية الأخبار عنه
وهل لنا إلّا القبول بما روت
ان عزّت الأخبار
أو كثر السؤال ؟

فهو يرسّخ خطابه الإشهاري الآيديولوجي الذي أسّسه في نصّه الأول بتساؤلات حجاجية ليستميل ذهنية متلقيه ويحاول تمرير آيديولوجيته بسهولة بعد أن يخدّر طبقات وعيه المتكلّسة بالرؤية الميتافيزيقية المثالية مع ضخ شحنات خطابه الإشهاري الواقعي الذي يبتعد عن تلك الطروحات المثالية التي علّمت البشرية أن لا جدوى منها تماماً أمام معاول العلوم والتكنولوجيا التي حطّمت تلك الصروح الميتافيزيقية من وجهة نظره المروّج لها.

(١) الأعمال الشعرية، سامي مهدي: ٢٨٦– ٢٨٧.

ويستثمر الشاعر خزعل الماجدي أسطورة إنكي وننماخ في نصّه الشعري (وضع الرب البذور في خاتم حواء وقال لها: انثري) من مجموعته الشعرية (حيّة ودرج) المطبوعة عام ١٩٩٣ يروّج فيه لأفكاره السياسية والإجتماعية إذ يقول[١] :

تختبئ ننماخ خلف مخزن الحقائب وبيدها العصا
والموظفون يجردون القوائم، مخلوقات إنكي الستّة:
(المتصلّب المفاصل، الأعمى، المشلول، الذي لا يستطيع
الإحتفاظ بمنيه، العاقر، الخصيّ) يتجوّلون في الشارع
بمرح، ينقلون الحقائب، يصبغون الأحذية ويدندنون.
ننماخ الموزّرة والمسخّمة الأذرع تراقب المشهد بصبر

نلحظ أنه من خلال أسطورة إنكي وننماخ القائمة على قدرة الخلق والتكوين والتي تحكي حيرة الآلهة لمصير الإنسان بعد أن خلق الإله إنكي مخلوقات مشوّهة في لحظة سكر، حاولت بعدها ننماخ تدارك الأمر وإنقاذ تلك المخلوقات ولكن من دون جدوى فانفجرت بالعويل بعد عجزها عن إيجاد عمل لهم[٢] وهذا تكثيف لتلك الأسطورة السومرية التي من خلالها تمكن الماجدي من إشهار موقفه من السياسة الحاكمة في العراق في الثمانينات والتسعينات وما أنتجته من تشويه لكل مفاصل الحياة آنذاك. ونلحظ أنّه يشكل نصّه الشعري من خلال مشاهد تتسم بالتتابع الحركي، إذ تهيمن عليها صيغة الأفعال المضارعة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأسطورة. وتكمن فاعلية النص في قدرته على تحقيق رمزية عميقة لفكرة الخلق المستوحاة من الأسطورة، إذ من خلالها تمكن من إشهار رؤيته للعالم حيث عبثية وجود الإنسان العراقي في ظل حكومات متتابعة لم تنتج سوى الفوضى والحروب والخراب الذي عمّ الوطن من أقصاه إلى أقصاه، وكان ممّا أنتجته الحروب تلك المخلوقات المستوحاة من روح الأسطورة حيث (المتصلّب المفاصل، والأعمى، والمشلول، والعاقر، والخصيّ) هذا ما أفرزته الحكومات التي قيّدت الإنسان العراقي واستعبدته وقهرته واستلبت حقوقه وحريته، فآل مصيره إلى الموت الذي يتربّص به في كلّ مكان، وأمّا من حظي بالنّجاة من الحروب فلم يكن مصيره بأحسن من الموتى، تحكي أعمالهم التي يمتهنونها حكاية المهانة والذّلّة فهم إمّا (حمّال أو صبّاغ أحذية) وننماخ تراقب المشهد من بعيد من دون أن تمتلك القدرة على تغيير الواقع، وتستمر حكاية

(١) الأعمال الشعرية، خزعل الماجدي: ٣/ ١٨٥.
(٢) ينظر: الأسطورة والمعنى، فراس السواح: ٩٧- ٩٨.

الفوضى والعبثية التي صار إليها الإنسان العراقي الذي خلق في لحظة سكر عبثية وهذا ما يؤكّده خزعل الماجدي في نصّه الشعري إذ يقول[1] :

ترى أنّهم مخلوقات مشوّهة خلقها إنكي في لحظة سُكْرٍ
وزرعتهم الحرب في هذه الشّوارع، حادتهم وركضت
وراءهم حتّى حاصرتهم وجعلتهم مثل الدّجاج
ينسربون إلى مقرّها الذي أسمته فوق / تحت .. قرب
حفيف النّباتات وشهوات السّمك، حيث لا أصوات
السّيّارات ولا صراخ للمارّة
ننماخ الخبّازة تعطي الآن الخبزَ للنّاس من حقولها،
والنّاس يتدافعون بالمناكبِ:
آهٍ يا أولادي حتّى الخبزُ أصبح عليكم حسرة.

في خطابه لمتلقيه خزعل الماجدي يرفع لافتة إشهارية يدوّن فيها المتاهة التي زجّ بها السياسيون الإنسان العراقي في حروب عبثية عديمة الفائدة، وهذا بطبيعة الحال يتواشج مع لحظات خلق إنكي لنماذجه المشوّهة في حالة سكره، مما دفع ننماخ إلى الشعور بالأسى لما صارت إليه مصائر أبنائها. وهذا يدفعنا إلى القول بأنّ خزعل الماجدي في نصّه الشعري هذا قد روّج لأفكاره وتصوّراته وآيديولوجيته التي مرّرها من خلال الأسطورة ليحفّز المتلقي على تلقّي رؤيته المناهضة لأفكار السلطات السياسية التي كانت سبباً رئيساً في خراب الوطن وخلق نماذج بشرية مشوّهة.

(١) الأعمال الشعرية، خزعل الماجدي: ٣/ ١٨٦.

المبحث الثاني

توظيف الأسطورة الغربية في تشكيل الخطاب الإشهاري

لاشكّ أنّ الشعراء العراقيين قد اطّلعوا على حضارات اليونان والإغريق اطلاعاً ثقافياً واسعاً مكّنهم من استلهام أساطيره وتوظيفها في نصوصهم الشعرية المعاصرة للإشهار عن آيديولوجيتهم ورؤاهم وتصوّراتهم للعالم، فمن توظيفهم للأساطير الغربية ما نجده لدى الشاعر بلند الحيدري الذي يستثمر أسطورة (برومثيوس) في نصّه الشعري (برمثيوس) في مجموعته الشعرية (أغاني المدينة الميتة) المطبوعة عام ١٩٥١ للإشهار عن أفكاره الآيديولوجية إذ يقول[١] :

وكالذّرى
تلك التي لا تُرى
في صمتها القارس غير الرّعودْ
أعيش في موتي
وأقتات من سرّي الّذي كان فكان
الوجودْ
لا هاجس
يبحث بي عن صدى
ولا غد
يحلم لي بالخلودْ
واللّيل إن مرّ ولم ينته
لن يسأل الشّك:
ترى .. هل تعودْ .. ؟
تعودْ
أو لا تعودْ
؟
فليس في مطّرحي ساعة
يحصي بها الوقت خداع الوعودْ
هذي يدي
نفضت عنها غدي

(١) الأعمال الكاملة، بلند الحيدري: ٢٥٣- ٢٥٤.

وألف وعدٍ راسفٍ في القيودْ
فليحلم النّسر بأمواته
ولتحلم الموتى بسرّ الخلود

إذن يستثمر بلند أسطورة بروميثيوس واهب الفكر العميق والحكمة، متبنّي قضايا البشر المناهضة للآلهة، مانح النار للبشر ليتفوّقوا بها على الحيوانات بعد أن انتزعها منهم زيوس لتكبّله الآلهة بعدها على صخرة فوق جبل تاركةً للنسر التهام كبده كل يوم لينقذه هرقل فيما بعد(١) وهي أسطورة ثورية تحمل دلالات المقاومة والفداء، فلكي يشهر الشاعر مواقفه ورؤيته للعالم نجده يمهّد ذهنية القارئ لفهم خطابه الإشهاري، فكما أنّ بروميثيوس تحمّل ألوان العذاب في سبيل خلاص العالم وسعادته، كذلك الشاعر قد تحمّل ألوان العذاب في سبيل خلاص البشرية وسعادتها، لذا على المتلقي استلهام خطابه الإشهاري الموجّه له لينال تلك السعادة وليحظى بالخلاص، وهنا يحاول الشاعر تفعيل الاستيهامات لدى متلقيه وزعزعة يقينياته وإثارة انفعالاته لتوليد الحاجة الماسّة في داخله والرغبة في الإقتناع بالأفكار المشهَر عنها وإشباعها في ذهن المتلقي المستهلك، وذلك ليشحذ همم الجماهير لتبنّي المواقف الثورية والإصرار عليها لتحقيق التغيير المنشود من خلال الصراع الإجتماعي والسياسي ومقاومتهما، فلكي يعيش الإنسان لابد من تضحية، فلن ينال الإنسان الخلود من دون أن يتذوّق طعم الموت، ولن تتحقّق الحرية من دون ثورة كاسحة على الظلم والقيود المانعة من قيام الثورة، فهو يشهر عن آيديولوجيته المناهضة للواقع السياسي والإجتماعي المرير الذي يمر به مجتمعه، ومن خلالها يروّج لصراع عنيد وعتيد ضد القيود السياسية والإجتماعية التي تؤخّر دائماً زمن الخلاص وتقف بالضد منه، وجاءت رمزية النسر لتؤكد فعل السلطة السياسية والإجتماعية المانعة لأي تحوّل سياسي أو اجتماعي في المدى البعيد.

وللشاعرة نازك الملائكة نصّ شعري (صلاة إلى بلاوتس إله الذهب) في مجموعتها الشعرية (مأساة الحياة وأغنية للإنسان) المطبوعة عام ١٩٧٠ تروّج فيه لأفكارها الآيديولوجية أيضاً تقول فيه(٢) :

حدّثيهم عن ذلك الملـك الغـــا	**برِ ميداس كيف كان مصيره ؟**
أين ساقته شهوة الذّهب العمـــ	**يـــاءُ ماذا جنى عليه غروره**
جُنَّ بالتبر لم يعد يعشق الأنـــ	**جمَ إلّا ان أذكرتـــه سنـــــاهُ**
وازرقاق الغيوم والبحـر ما عـــا	**دَ مثيـــــراً لحبّـــــهِ ورؤاهُ**

(١) معجم الأساطير، ماكس اس شابيرو، ورودا أ. هندريكس، تر: حنّا عبود، دار علاء الدين، دمشق – سوريا، ط٣، ٢٠٠٨م: ٢١٤.
(٢) ديوان نازك الملائكة: ١/ ٣٣٥– ٣٣٦.

واخضرار الجبال أصبح يـؤذي روحَهُ والزّهـور لا ترويـهِ
فهو عطشان يدفع الذّهب الوهّـ ـاجُ أحلامَهُ إلى ألـف تيهِ
ودَّ لو حوّل الخـدودَ وأهـدا ـبَ العيون الكحلاء تبراً نقيّا
واشقرارَ الآفاق والشّفق الخـجـ ـلانَ والشّوقَ نائماً في مُحيّا
والشّفاه الحوّاء ينضح منها الد فءُ كم ودَّ لـو تحوّلنَ سرّا
ذهباً تجمدُ الشّفـاهُ علـيهِ قُبَلاً كالرّخـامِ يقطرنَ تبـرا

تستثمر الشاعرة في تشكيل خطابها الإشهاري الأسطورة الأغريقية (ميداس) ذلك الملك الأسطوري الذي قادته شهواته الرخيصة إلى المهالك حيث لم يعد يرى في الوجود سوى المادّيّات الخاوية من جمال الوجود ورونقه الأصيل، فالنجوم ليست معشوقته إن لم تداعب ذاكرته بسنى الذهب، وزرقة الغيوم والبحار لم تعد مثيرة لرؤاه وتصوّراته، أما الجبال فقد أصبح اخضرارها يسمّم روحه، والزهور حتى الزهور لم تعد تروي ظمأه المادّي، فأحلامه عطشى للذهب الذي يضعه في قلب المتاهات، إنّه يودّ لو تحوّلت معايير الجمال الوجودي كلّها إلى معايير مادّيّة بحتة، فلا خدود متورّدة، ولا عيون نجلاء، ولا أشواق، ولا شفاه ينضح من معينها الدفء، بل ذهباً تجمد الشفاه عليه، إنّها الآيديولوجية المادّيّة التي تقف منها الشاعرة بالضّد، مشهرة من خلال تشكيلها لذلك الخطاب عن آيديولوجيتها المناهضة للرأسمالية التي قتلت روح الجمال في البشر وخرّبت المبادئ الإنسانية وتركتها خاوية على عروشها، وتواصل الشاعرة تشكيل خطابها الإشهاري من خلال نسيج الأسطورة الأغريقية إذ تقول[1] :

(عِمْ مساءً ميداسُ) مَنْ أنت ماذا تبتغيهِ في قبـويَ المجهـولِ ؟
وأجاب الطّيـفُ الكريـمُ: أنا أمـ ـلكُ تحقيقَ كلِّ حُلـمٍ جميـلِ
أنا ربُّ التمنّيـاتِ شِفـاهـي تملكُ المستحيـلَ والأبعـادا
في ذراعيَّ قدرةُ الخلـقِ لو شـئـ ـتَ لَحوَّلتُ كـلَّ حـيٍّ جمادا
ملء كفّي الورود والذّهب الـوهّـ ـاجُ واللـونُ والشّبـابُ الطريُّ
كلَّ ما شئتَ فاقترحْ تهبـطُ الأفـ ـلاكُ والأفقُ والسَّنَـا الكـوكبيُّ
أرأيتَ الأغصانَ في قبضـة الإعـ ـصارِ تهتـزُّ وردةً بعـد وردة ؟
أرأيتَ النّعيمَ في قلـب رحّـا ل سنينٍ وأتـاهُ حُلـم العودة ؟
هكذا لوّن الحمـاسُ خدود الـ ـملـكِ الغِرِّ وهو يسـمعُ هذا
وجثا ضارعاً وصـاحَ: حنـانيـ ـكَ ملاكـي ماذا سـؤالكَ ماذا
أعطِ هذي اليـدَ المشوقةَ لمساً ذهبياً وقـوّةً مـن سحـرِ

(١) المصدر السابق: ١/ ٣٣٨- ٣٤٢.

دع ذراعـــيَّ لا تمسّـــــان إلّا لتُعيـــدا الأشيـــــاءَ عالمَ تبرِ
إيـــهِ ميداسُ ، أيّها الملِكُ الأحـ ـمقُ ماذا جنيـــتَ ؟ أيُّ غرورِ ؟
ارقبِ الآنَ مطلعَ الفجرِ وانظرْ كيف عُقْبَى خيالـــكَ المغـــرورِ
في غدٍ تستحيلُ أشجـارِكَ الحيّـ ـةُ تبـــراً تعافـــه الأنـــــــداءُ
وسواقي الميـــاهِ تجمدُ صَفـــرا ءَ كصحراءَ جفَّ فيها المـــاءُ
ودموع النّدى تعود حصىً صَلـ ـباً ولينُ الورودِ يُصبـــحُ صلدا
ورحيقُ الكرومِ يجمـدُ كالصّـخـ ـرِ ودفءُ الأعشاشِ يُصبحُ بَردا
وحريرُ السّتائـــرِ اللُّدنِ يغـدو جامداً لا ليـــــونةٌ لا انثيـالا
و (نهاوندُ) بنتكَ العذبـــةُ الجذ لى ستغدو في لحظةٍ تمثـــالا
هكذا تنتهي خيـــالاتُكَ التـــبـ ـريّةُ الصُّفرُ للأســـى الأبـديِّ
فاشربِ الآنَ خمرةَ النَّـــدَمِ البـا رِدِ واسكرْ بحُلمِـــكَ الذّهبـيِّ

تتحدث الأسطورة الأغريقية عن قدرات ميداس الخارقة لنظام الطبيعة ومنها تحويل كل ما يلمسه إلى ذهب حتّى طعامه وشرابه، هنالك يطلب من إلهه أن يسترجع الهدية فيخبره بأنّ طريق الشفاء من ذلك يمرّ عبر الاستحمام في نهر باكتولوس فيفعل، إلى أن تتسرّب كل قواه السحرية في الرمال النهرية حيث يوجد الذهب الآن[1] وهذا ما تستثمره الشاعرة في هذا النص الشعري لتشهر من خلاله أفكارها ورؤيتها حول ما يدور في مجتمعها من أوجاع وجشع وشهوات قد تبلغ حدّ الجنون، وقد مثّلت تلك الدعامة الأسطورية في النص معادلاً موضوعياً تعويضياً للإنسان الذي ينتابه الهم الطبقي بشقّيه الإجتماعي والفكري، فميداس إله الذهب أين أوصله غروره وجشعه وفكره المادي الطبقي الجشع ؟ ونازك في هذا النص تحديداً تروّج لنهاية الرأسمالية المادّيّة المأساوية المشابهة تماماً لنهاية ميداس المأساوية الذي طاردته لعنة الذهب بحيث تحوّل كل ما وقعت عليه يده ذهباً فحرمته عنجهيته وغروره من الطعام والشراب، ليس ذلك فحسب بل خسر حتى ابنته التي تحولت الى ذهب أيضاً بعد أن لامسها فلم يجد القدر له مصيراً سوى الهلاك، وهنا تستشرف كما أسلفنا إشهارياً المأساة التي تتنظر النظام الرأسمالي الظالم بنهاية مأساوية مشابهة لمأساة ميداس الذي قتله جشعه وخواء أفكاره، وهكذا استثمرت الشاعرة تلك الأسطورة للترويج لأفكارها الإشتراكية بطريقة ذكية جداً، واستثمار الأساطير في تشكيل الخطاب الإشهاري أسلوب إغرائي يزكّي عامل الوهم لدى المتلقي الذي يلاحق الأمل المتضمن في النصوص الشعرية العراقية المعاصرة.

(١) ينظر: معجم الأساطير، ماكس اس شابيرو، وردا أ. هندريكس: ١٧٣.

وتوظّف الشاعرة آمال الزهاوي أسطورة ميدوزا اليونانية في نصّها الشعري (عينا ميدوزا) مشهرةً عن آيديولوجيتها السياسية والإجتماعية إذ تقول[١] :

فلْتورق الظّلماء ولْيذْوي القمر
طافت عذارى العيد حول دوار* تخطر بالزهر
يَسْكرْنَ بالتّسبيح أقدامُ الحجر
من كلّ ما تحوي الجرار
ينشدنَ: ما معنى دوار !
فلْتحرق الأنداء في صخب المطر
عنقاء مغرب تنثر الأحلام في رؤيا البشر
والسّندباد اليوم خدّرهُ الضّجر
قالت لياليا البليدة كالجدار:
مَنْ ذي ؟ لتثملَ بالحكايا شهريار
فالليّل أنكر شهرزاد وأغمضت روح السّمر
فلْتزهر الأصداء في قلب الصّخر
ما كنتُ أحسب أنّ ميدوزا ستخطف عينها
إنّي شهدتُ بأفقنا
أحداقها تلد الحجر
صبّت بأعراقي الحجر

بدءاً لابد من تسليط الأضواء على أسطورة ميدوزا الأغريقية التي تتحدّث عن إحدى الفورغونات اللواتي باستطاعتهنّ تحويل كل من تقع أنظارهن عليه إلى حجر، كانت ميدوزا تتسم بجمال أخّاذ، لكنّ الإلهة أثينا حوّلتها إلى فتاة بشعة جداً، حتّى صار شعرها أفاعٍ متدلّية؛ بسبب ادّعائها أنّها تفوق الربّة جمالاً؛ لينتهي أمرها مقتولةً على أيدي برسيوس وأثينا[٢] ولم يأتِ توظيف الشاعرة لتلك الأسطورة اعتباطاً؛ وإنّما جاء مقصوداً إذ أشهرت الشاعرة من خلالها عن أفكارها ورؤيتها للعالم من حولها، كيف لا وهي شاعرة ترى واقع المجتمع العربي والعراقي المتناقض وعيونه تحجّر الأشياء، وجاءت بالدال اللساني (دوار) ذلك الصنم الذي تتبرّك به الصبايا طوافاً في العيد؛ لتعزّز من رسائلها الإشهارية للمتلقي، كما واستثمرت طاقة الدال اللساني الآخر (عنقاء مغرب) الذي تتشاءم منه العرب قديماً ويشير إلى ما يئس منه،

(١) الطارقون بحار الموت، آمال الزهاوي، دار العودة، بيروت – لبنان، ١٩٧٠م: ٦٦.
(*) دوار: صنم في الجاهلية تطوف حوله العذارى في الأعياد.
(٢) ينظر: معجم الأساطير، ماكس شابيرو، ورودا هندريكس: ١٦٩.

كل تلك الرموز تواشجت لتمرير خطاب إشهاري مفاده أنّ المجتمع العربي قد تحوّل إلى هيكل حجري لا جدوى منه في تحقيق التغيير المنشود، فالشعوب تخدّرت، والقادة غضّت الطرف عن ويلات ومحن شعوبها، والإنسانية تحجّرت، والحياة فقدت ديناميكيّتها. ليس ذلك فحسب بل السندباد أيضاً قد تخدّر، وشهرزاد لم تعد صالحة لأن تقدّم علاجاتها النفسية لشهريار ليكتسب الواقع تفاؤلاً ويثرى به، فالواقع قد تجمّد، ولا حضور لغير ميدوزا هنا، فالشاعرة تركّز كثيراً على عدم حركية المجتمع التي أوصلته إلى تقهقر عام عن مواكبة ركب الحضارة العالمي، وهذا ما يجعلنا نؤكد تمرير إرسالياتها الإشهارية المعبّأة بالفلسفة الواقعية التي تدعو إلى تطوّر المجتمعات من خلال العزف على وتر الديناميكية التي أساسها الوعي الماركسي، فهي تشحذ همم متلقيها من الشعوب العربية إلى التحرّك الفوري والثورة والتغيير، وتواصل الشاعرة بث إرسالياتها الإشهارية في نصّها الشعري هذا قائلةً[1] :

فلْتنشدي يا دهشة الصّمتِ
ولتشهَدي إشراق مصباح ظمي
لم يقبس الألوان من سأمي
ولترقصي جنّيّة الحلم
ولتهزجي في خفق أجراس صحت
تهتزّ في إغماضة الألم
طوفي ..
تولّي ضجّة النّغم
نضت زوايا الحب لهفتها
في عودة الأنداء فابتسمي
فلترقصي جنّيّة الحلم
اليوم تبعث واحة الأقمار والخصب
في صحو إشراق على دربي
لكنّني .. غامت بأحداقي الصّور
وأنا التي في عين ميدوزا حجر

هنا تحاول الشاعرة أن تبثّ شعلة الأمل وتوقد جذوتها في نفوس متلقّيها، فعلى الرغم من كلّ ما يعانيه الواقع العربي والعراقي على وجه الخصوص من تناقضات حادّة إلّا أنّ الآمال ستنبعث من ركام العتمة المحيطة به بشرط التحرّك والإنتقال من نسق الثبوت إلى فضاء حركي فاعل يكسر قيود الجمود والتحجّر التي أصابته نظرة ميدوزا.

(١) الطارقون بحار الموت، آمال الزهاوي: ٧٠- ٧١.

الخاتمة

وظّف الشاعر العراقي المعاصر الأسطورة في نصوصه الشعرية للترويج لأفكاره وتصوّراته، فقد فهم أنّه من خلال توظيف الأسطورة يستطيع أن يبعث برسائل آيديولوجية يُشهِر من خلالها موقفه من العالم ورؤيته المعاصرة نظراً لاختلاط الأسطورة بسيرورة الخداع والمراوغة، فمن خلالها يستطيع استمالة المتلقي وجذبه وحثّه على اقتناء بضاعته الفكرية سياسية كانت أو اجتماعية أو ثقافية أو أدبية، بوصفها مصنعاً للميول والرغبات، وهذا ما حفّز الشاعر العراقي على استثمارها في نصوصه لمعرفته المسبقة بمدى تأثيرها الحجاجي على أذهان ومشاعر وعواطف المتلقي منتظراً الإستجابة لرسائله الإشهارية ليتحقّق الإقتناع الذّهني والعاطفي.

ثبت المصادر

أولاً: الكتب:

❖ أساطير أغريقية (أساطير البشر)، د. عبد المعطي شعراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة– مصر، ١٩٨٢م.

❖ استراتيجيات التواصل الإشهاري، سعيد بنكراد وآخرون، دار الحوار للنشر، اللاذقية – سوريا، ط١، ٢٠١٠م.

❖ الأسطورة والمعنى – دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، فراس السواح، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، ط٢، ٢٠٠١م.

❖ الأعمال الشعرية الكاملة، بدر شاكر السياب، دار الحياة للنشر، القاهرة – مصر، ط١، ٢٠١١م. الجزء الأول.

❖ الأعمال الشعرية، خزعل الماجدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ٢٠٠١م. الجزء الثالث.

❖ الأعمال الشعرية، سامي مهدي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٦م.

❖ الأعمال الكاملة، بلند الحيدري، دار سعاد الصباح، الكويت، ط١، ١٩٩٢م.

❖ ديوان نازك الملائكة، نازك الملائكة، دار العودة، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٧م. الجزء الأول.

❖ الطارقون بحار الموت، آمال الزهاوي، دار العودة، بيروت – لبنان، ١٩٧٠م.

❖ لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤١٤هـ. الجزء الرابع.

❖ لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، فراس السواح، دار علاء الدين، سوريا، ط٨، ٢٠٠٢م.

❖ مرايا نرسيس – الأنماط النّوعيّة والتّشكيلات البنائيّة لقصيدة السّرد الحديثة، د. حاتم الصّكَر، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر، ط١، ١٩٩٩م.

❖ معجم الأساطير، ماكس اس شابيرو، وورودا أ. هندريكس، تر: حنّا عبود، دار علاء الدين، دمشق – سوريا، ط٣، ٢٠٠٨م.

❖ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة و كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.

❖ مغامرة العقل الأولى، فراس السواح، دار الكلمة، بيروت – لبنان.

ثانياً: الدوريات

❖ استراتيجيات الإقناع من خلال الأسطورة في الخطاب الإشهاري، (بحث)، أسماء حمايدة، مجلّة كلية الآداب واللغات، ع٢٢، جامعة محمد خيضر، بسكرة – الجزائر، ٢٠١٨م.